الباب السادس

في

الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء

تمهيد

المواقف الإيمانية ثمرات الإيمان الصادق، وشجرة الإيمان شجرة طيبة مباركة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، المؤمن الصادق يأكل طيبًا، ويعمل صالحًا، إنه طيب مطيب ينضح بالطيب فكلامه طيب ومظهره طيب، وأقواله طيبة، وأعماله طيبة، يصعد منه إلى الله - ﷻ - كلم طيب، إنه يتأهل لدار الطيبين وإذا دخل الجنة - ولا يدخلها إلا طيب - دخلت عليه الملائكة بقوله ﷻ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

والله ﷻ اختبر العباد بأنواع ثلاثة من الابتلاء:

النوع الأول- هو التكاليف الشرعية، الأمر والنَّهي، هل يطيع ربه - ﷻ - فيما أمر، وينتهي عمَّا نهى عنه وزجر؟

النوع الثاني- الأمور الخبرية هل يؤمن بالغيب الذي أخبر الله ﷻ به، مما لم يقع تحت حواسه، ويخضع للبحث والتجربة؟

النوع الثالث- هو القضاء والقدر، هل يسلم العبد لقضاء الله - ﷻ - وقدره، ويرضى بما يقدره الله - ﷻ - مما يشق على النفوس ويخالف هواها؟

وهذا النوع الثالث هو المقصود بالبحث في هذا الفصل من الكتاب، فكلما قوي إيمان العبد فإنه يرضى بالله ربًا فيرضى بحكمه، ويرضى بقضائه وقدره، ولذا وردت عن السلف أقوال، وصدرت منهم أعمال عند نزول البلاء لقوة صبرهم وعظيم رضاهم، قد تعد عند المتأخرين مع ضعف الإيمان واليقين من العجائب، والمواقف الإيمانية كما ذكرنا غير مرة رايات مختلفة الألوان، ولكن الدافع لها واحد وهو محبة الله - ﷻ - وقوة الإيمان، والهدف واحد وهو الوصول إلى رضا الديان والفوز بجنة الرضوان.

ولاشك في شدة حاجة المسلم إلى تعلم الصبر وتكلفه، حتى يصير له سجيةً، ولعله يترقى بعد ذلك إلى درجات الرضا، فينال رضا الله ﷻ، الذي هو أكبر من الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

فلما كانت الدنيا دار بلاء، والآخرة دار جزاء، فلا يسلم المؤمن في الدنيا من المصائب والرزايا، فمن في الدنيا لم يُصَبْ بمصيبة؟!

قال بعضهم:

المَـــرْءُ رَهْـــنُ مَـصَـائـبٍ لا تنقضي ... حَـتّـى يُـوَسّـدَ جِـسْـمُـهُ في رَمْـسِـهِ

فَـمُـؤَجَّـلٌ يَـلْـقَـى الـــرَّدى في غَـيْره ... وَمُـعَـجَّـلٌ يَـلْـقَـى الـــرَّدَى في نَـفْـسِـهِ

ونحن في أزمنة متأخرة غابرةٍ، حُرِمَ فيها المسلمون من التحاكم إلى شريعة ربهم، ونكست فيها أعلام العلم والدين، وصار الدعاة إلى الله - ﷻ - والملتزمون بشرع الله - ﷻ - مُحَاربين مضطهدين، وارتفعت أعلام الفتن، وكثرت الشبهات والمحن، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر، فما أحوجنا إلى تعلم الصبر والعمل به، فإن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعات حتى يؤديها، وصبر على المعاصي حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار المؤلمة التي تخالف هوى النفس.

وهذه الأنواع الثلاثة حاجتنا إليها في هذا الليل الحالك أكثر من حاجتنا إلى الطعام والشراب، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

(أ) معنى الصبر والرضا

الصبر لغة: هو المنع والحبس، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

وشرعًا: هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، ونحو ذلك.

وقيل: هو خلق فاضلٌ من أخلاق النفس يمتنع به عن فعل ما لا يحسن، ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وقال بعضهم: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بسلعات المعيشة.

وقال آخر: هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى.

وقال آخر: تجرع المرارة من غير تعَبُّس[1].

والنفس لها قوتان: قوة إقدام، وقوة إحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يَضُرُّه.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن هنا أخذ القائل قوله: الشجاعة صبر ساعة.

والصبر والجزع ضِدَّان كما أخبر تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

والرضا هو انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال الألم، وإن وجد الإحساس بالألم لكن الرضا يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية.

فللعبد فيما يكره درجتان: درجة الرضا ودرجة الصبر، فالرضا فضلٌ مندوبٌ إليه، والصبر واجبٌ على المؤمن حَتمٌ.

---

(١) انظر: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأهل الرضا تارة يلاحظون المُبتلي وخِيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متهم في قضائه، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم؛ لملاحظتهم صدوره من حبيبهم.

والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر حبس النفس وكفها عن السخط مع وجود الألم وتمني زواله، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا يوافق الصبر في حبس النفس وكف الجوارح، ويزيد عليه عدم تمني زوال الألم، ففرح العبد بالثواب، وحبه لله ﷻ، وانشراح صدره بقضائه يجعله لا يتمنى زوال الألم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به - أي الرضا - كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال النبي ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولا**»(١).

وقال ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، غفرت ذنوبه**»(٢).

فالرضا لم يوجبه الله - ﷻ - على خلقه، ولكن ندبهم إليه وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضيَ الله عنه، بل رضا العبد من الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه.

ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عين المشتاقين.

نسأل الله أن يقسم لنا من الرضا ما يبلغنا به غاية المنى، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٢) الإيمان، والترمذي (١٠/ ٩١، عارضة) الإيمان.

(٢) رواه مسلم (٤/ ٨٦) الصلاة، وأبو داود [٥٢١ عون] الصلاة، والترمذي (٢/ ١١، ١٢عارضة) الصلاة.

(ب) فضيلة الصبر والصابرين

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

والمصيبة هي كل ما يؤذي الإنسان ويصيبه.

كان عمر رضي الله عنه **يقول**: نِعم العِدلان ونعمت العلاوة للصابرين.

يعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى.

والعلاوة ما يوضع فوق العدلين على البعير.

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، وفاز الصابرون بمعية الله عز وجل.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر تعالى عن محبته للصابرين فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

نسأل الله أن يفتح علينا في الدين، وأن يجعلنا من الصابرين الشاكرين.

أما أدلة السنة على فضل الصبر والصابرين:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ**»(٢)، أي: يصيبه ببلاء.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كَفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها**»(٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْل مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»(٤).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ الله أَنْ يُعَافِيكِ**»، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الجَنَّةُ**»(٦).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٣٥) الزكاة، ومسلم (٧/ ١٤٤-١٤٥) الزكاة.
(٢) رواه البخاري (١٠/ ١٠٣) المرضى، ومالك (٢/ ٩٥٤١) العين.
(٣) رواه البخاري (١٠/ ١٠٣) المرضى، ومسلم (١٦/ ١٢٩) البر والصلة.
(٤) رواه البخاري (٦/ ١٣٦) الجهاد، وأبو داود [٣٠٧٥] الجنائز.
(٥) رواه البخاري (١٠/ ١١٤) المرضى، ومسلم (١٦/ ١٣١) البر والصلة.
(٦) رواه البخاري (١١/ ٢٤٢) الرقاق، والصفي: هو الخليل والصديق الذي يختاره الإنسان ويصطفيه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِنَّ الله قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عبدي بحَبيبتَيه فَصَبرَ عَوَّضتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»(١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلاَّ أَخْلَفَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**».

فلما مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله صلى الله عليه وسلم (٢).

آثار عن السلف الصالح رضي الله عنهم في الصبر والرضا:

قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوضه خيرًا ممَّا انتزعه.

وقال يونس بن زيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه.

وقال فضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤]، قال: صبروا عما أُمِروا به، وصبروا عمَّا نُهوا عنه.

وقالوا: الحيلة فيما لا حيلة فيه الصبر.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن الله - عز وجل - إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به.

وقال أبو عبد الله البراثي: من وهب له الرضا، فقد بلغ أقصى الدرجات.

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ١١٦) المرضى، والترمذي (٩/ ٢٤٤، ٢٤٥ عارضة).

(٢) رواه مسلم (٦/ ٢٢٠، ٢٢١) الجنائز، ومالك في الموطأ (١/ ٢٣٦) الجنائز، وأبو داود [٣٣٠٩ عون] الجنائز بمعناه، وابن ماجه [١٥٩٨] الجنائز.

وقالت رابعة: إن الله - ﷻ - إذا قضى لأوليائه قضاءً لم يتسخَّطُوه.

وقُتِلَ لبعض الصالحين ولد في سبيل الله - ﷻ - فقيل له: أتبكي وقد استشهد؟ فقال: إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله - ﷻ - حين أخذته السيوف.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشَّك والسخط.

وقال علقمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]: هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]: الرضا والقناعة.

ونظر علي بن أبي طالب ﷺ إلى عدي بن حاتم كئيبًا فقال: يا عدي، من رضيَ بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرضَ بقضاء الله جرى عليه وحبط عملهَ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله ﷻ.

وقال الحسن: من رضي بما قسم له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه.

وقال بعضهم: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء.

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر[1] كثيرة فقال:

لاَ وَالـــذِي أنَـــا عَـبْـدٌ في عِـبَـادَتِـهِ ... لَـــوْلا شَمَـاتَـــةُ أَعْـــدَاءٍ ذَوي إِحَـــنِ

مَـا سَـرَّنـي أَنَّ إِبِـلـي في مَـبَـارِكِـهـا ... وَأَنَّ شَـيْـئًـا قَـضَـاه الله لَمْ يَـكُـنِ

وقال حفص بن حميد: كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة حين ماتت امرأته فسألته: ما الرضا؟ قال: الرضا أن لا يتمنى خلاف حاله، فجاء أبو بكر بن عياش فَعَزَّى

(١) أباعر: جمع بعير.

ابن المبارك. قال حفصٌ: ولم أعرفه فقال عبد الله: سله عما كنّا فيه، فسألته فقال: من لم يتكلم بغير الرضا فهو راضٍ، قال حفص: وسألت الفضيل بن عياض: فقال: ذاك للخواص، ثم قال قَادِم الديلمي العابد: قلت للفضيل بن عياض: من الراضي عن الله؟ قال: الذي لا يحب أن يكون على غير منزلته التي جُعل فيها.

وقال أبو عبد الله البراثي: لم يُرَ في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله - ﷻ - على كل حال[1].

(جـ) دوافع تعين على الصبر والرضا

لاشك في أن الصبر مقام رفيع، وطاعة يحبها الله ﷻ، ويحب أهلها كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقد جعل الله ﷻ ثواب الصبر بغير حساب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والصبر حتم واجب، أما الرضا فهو أعلى رتبة منه، وجزاؤه رضَا الله ﷻ الذي هو أكبر من جنة الله كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فما هي الدوافع والأسباب التي تعين على الصبر والرضا؟

١- من ذلك أن يتدبر العبد ما سبق من آيات كريمة، وأحاديث نبوية شريفة في فضل الصبر والرضا.

٢- ومن ذلك أن يدرس المواقف الإيمانية في الصبر على البلاء والرضا بمُرِّ القضاء، فإنه مما يعين على الصبر؛ لأنها رايات مرفوعة على طريق الإيمان، يتأسى بأصحاب هذه المواقف المؤمنون الصادقون، وينسج على منوالهم العباد الصالحون.

٣- ومن ذلك أن يعلم أن القدر قد سبق بذلك، قال الله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، والمعنى أن المصائب مقدرة، لا أنها وقعت

(١) «تسلية أهل المصائب» لأبي عبد الله محمد بن محمد المنبجي الحنبلي [١٦٧] دار الفرقان.

على وجه الاتفاق كما يقول الطبائعيون، ولا أنها عبث، بل هي صادرة عمن صدرت عنه محكمات الأمور ومتقنات الأعمال، وإذا كانت صادرة عن تدبير حكيم لا يعبث إما لزجر عن فساد، أو لتحصيل أجر، أو لعقوبة على ذنب، وقع التسلي بذلك.

٤- العلم بأن الدنيا دار الابتلاء والكرب لا يُرجى منها راحة.

وَمَا استغربَتْ عَيْني فُرَاقًا رَأَيْتُهُ ... وَلاَ أَعْلَمَتْني غَيْرَ مَا القَلْبُ عَالِمُه

٥- أن يقدر وجود ما هو أكبر من تلك المصيبة، كمن له ولدان ذهبَ أحدهما.

٦- النظر في حال من ابتلى بمثل هذا البلاء، فإن التأسي راحة عظيمة.

قالت الخنساء:

ولَولا كَثْرَةُ البَاكِين حَوْلي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنهُمْ بالتّأسّي

وهذا المعنى قد حرم الله - ﷻ - منه أهل النار، فإن كل واحدٍ من المخلدين فيها محبوس وحده، يظن أنه لم يبق في النار سواه[1].

٧- ومن ذلك أن يتذكر نعم الله ﷻ عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

٨- ومن ذلك أن العبد إذا صبر واحتسب فإن الله يعوضه ولا يخيبه.

مِن كُلِّ شيءٍ إذَا ضيعته عِوَضٌ ... ومَا مِنَ اللهِ إن ضَيَّعْتَ مِنْ عِوَضِ

٩- ومن ذلك أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو بجزعه يزيد في مصيبته، حيث يشمت أعداءه، ويسوء أصدقاءه، ويغضب ربَّه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه.

---

(١) باختصار وتصرف من «الثبات عند الممات» لابن الجوزي بتحقيق خالد علي محمد (٢٩-٣٠) دار الأندلس.

قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام، سَلا سَلْوَ البهائم.

يريد بذلك ما ثبت في الصحيح: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى**»(١).

١٠- ومن ذلك أن المصائب تفتح على العبد أبوابًا من العبادات كالدعاء، والإنابة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

١١- ومن ذلك أن يعلم أن البلاء للمؤمن إما أن يكون تكفيرًا لذنوبه أو رفعًا لدرجته، فالله - ﷻ - يبتلي المؤمنين يربيهم بالبلاء، ويهذبهم به حتى يصلحوا لمجاورته في الجنة، ويبتلي الكافر والفاجر من أجل أن يهلكه، ويزيل عينه وأثره.

١٢- ومن ذلك أن كل ما يحدث للمؤمن في الدنيا فهو خير له؛ لأن المؤمن إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم الله - ﷻ - عليه شكر.

قال النبي ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، ليس ذلك إلا للمؤمن**»(٢).

١٣- ومن ذلك أن يعلم أن الحياة الدنيا لعب ولهو، لا يدوم فرحها ولا حزنها، أشبه الأشياء بالدنيا المنام، يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، ثم يستيقظ فيعْلم أن ذلك لا حقيقة له.

١٤- ومن ذلك أن يعلم العبد أن عواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فَرُبّ محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٧١) الجنائز، ومسلم (٦/ ٢٢٨) الجنائز، وأبو داود [٣١٠٨ عون] الجنائز، والترمذي (٤/ ٢٠٧-٢٠٨ عارضة) الجنائز، والنسائي (٤/ ٢٢) الجنائز، وابن ماجه [١٥٩٦]، وقال النووي: معناه الصبر الكامل الذي يترتب عليه الثواب الجزيل لكثرة المشقة فيه.

(٢) رواه مسلم (١١٨/ ١٢٥) الزهد، وأحمد (٤/ ٢٣٢، ٢٣٣).

١٥- ومن ذلك أن يعلم أن في البلايا فوائد خفية وحكم مطوية.

قال التنوخي: كان يقال: المحن آداب الله لخلقه، وتأديب الله يفتح القلوب والأبصار[١].

وقال كذلك: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الكاتب يصف الفضل بن سهل، ويذكر تقدمه وعلمه وكرمه، وكان مما حدثني به أنه برئ من علةٍ كان فيها، فجلس للناس وهَنَّوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم قال الفضل: إِنَّ في العلل لَنِعَمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظٌ من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحضٌّ على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعدُ الخيار[٢].

١٦- ومن ذلك أن يتدبر العبد إذا ابتلي ببلاء عِزَّ الربوبية وذل العبودية، فيعلم أن الله - ﷻ - يبتلي من شاء من عباده بما شاء من ألوان البلاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣].

١٧- ومن ذلك أن يعلم أن أشد النَّاس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

قال ابن الجوزي: البلايا على مقادير الرجال، فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا، وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فَلُطِفَ بهم[٣].

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشد بلاء؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ**

(١) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ٥٥) بتحقيق عبود الشالجي، دار صادر.
(٢) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ٥٥-٥٦).
(٣) «صيد الخاطر» نقلًا عن «تسلية المصاب» للمصنف [٣٦].

بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[1].

١٨- ومن ذلك أن يعلم أنه عبدٌ مملوكٌ، والعبد ليس له أن يعترض على سيده.

كما قال بعضهم:

صِرْتُ لَهُمْ عَبْدًا ... وَمَا لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْتَرِضَ

١٩- ومن ذلك أن يتذكر عظمة الله - ﷻ - الذي ابتلاه بالبلاء.

قال أبو الوفاء بن عقيل: مات ولدي عقيل، وكان قد تفقه وناظر وجمع أدبًا حسنًا، فتعزيت بقصة عمرو بن عبد وُدٍّ الذي قتله علي بن أبي طالب، فقالت أمه ترثيه:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرو غَيْرَ قَاتِلِهِ ... مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ دَائِمَ الأَبَدِ

لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لا يُعَابُ بِهِ ... مَنْ كَانَ يُدْعَى أَبُوهُ بَيْضَةُ البَلَدِ

فأسلاها وعَزَّاها جلالة القاتل والافتخار بأن ابنها مقتول له[2].

٢٠- ومن يتخايل الانتقال إلى نعيم الجنة الذي لا انقطاع له، فما قدر تلك اللحظة؟ بل ما قدر جميع عمر الدنيا بالإضافة إلى البقاء السرمدي؟!

ومن تخايل البقاء السرمدي، وأنه باقٍ في النعيم السرمدي طاش فرحًا، ونسيَ كُلَّ ألم.

٢١- ومن ذلك أن يحتقر ما يبذل بالإضافة إلى عظمة الحق، كمحتقر هديته إلى ملك كبير.

٢٢- ومن ذلك أن يعلم أنما هي ساعة من الزمان، والله المستعان.

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٣) الزهد، وقال: هذا حديث صحيح، وأحمد في «المسند» (١/ ١٧٢).

(٢) «الثبات عند الممات» لابن الجوزي [٥٠].

(د) مواقف إيمانية في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء

١- أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو الذي يضرب به المثل في الصبر.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلًا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام، والعبيد، والمواشي، والأراضي المتسعة من أرض الثنية من أرض حوران، وحكى ابن عساكر أنها كانت كلها له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فَسُلِبَ منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله - وَجَلَّ - بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكرٌ لله - وَجَلَّ - في ليله ونهاره، وصبحه ومسائه.

وطال مرضه، حتى عافاه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده، وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وتقوم بأوده رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل**»، وقال: «**يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٣ عارضة) الزهد وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه [٤٠٢٣] وقال الألباني: حسن صحيح.

ولم يزد هذا أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا حتى إن المثل ليضرب بصبره عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويضرب أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحكيم نادى ربَّه: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فقيل له: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢]، فركض فنبعت بركضته عين ماءٍ بارد، فقيل له: اشرب منها واغتسل، ففعل ذلك فذهب ما في ظاهره وباطنه من البلاء[2].

وقال الحافظ: أصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جريج وصححه، وابن حبان، والحاكم من طريق نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس: «أن أيوب ابتلي، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لَكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، يعني فحزن، ودعا الله حينئذ، فخرج لحاجته، وأمسكت امرأته بيده، فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك وضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها، فرجع صحيحًا، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب فقال: إني أنا هو.

وكان له أَنْدَرَان: أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض»[3].

---

(١) «قصص الأنبياء» (٢٦٨، ٢٦٩).

(٢) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» [١٤٥].

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٢١).

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ! أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»[(١)].

وفي قصة أيوب عليه السلام عبرة للمعتبرين، كيف صبر هذا الصبر الجميل على ذهاب ماله وأقاربه وصحته، وثبت على حبه لله - عز وجل - وصبره على قضائه وقدره، واقتصاره على الشكوى إلى الله عز وجل، وهي لا تنافي الصبر، فأحسن الله عاقبته في الدنيا والآخرة، وأعاد عليه ماله وأهله وصحته، وزاده - عز وجل - من فضله، وهذه عاقبة المواقف الإيمانية دائمًا رفعة في الدنيا والآخرة، فكما كان يوسف عليه السلام مثالًا للعفة والاستعفاف، وكان إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء يعظم أمر الله، ويصبر على دين الله، فهذا أيوب مثالٌ للصبر الجميل، فصلى الله وسلم وبارك على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٢- أم سليم امرأة أبي طلحة رضي الله عنهما:

عن أنس رضي الله عنه قال: اشتكى ابن لأبي طلحة قال: فمات وأبوه أبو طلحة خارج البيت، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئًا، وجعلت ابنها في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقةٌ قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أخبره بما كان منها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا**»، فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد حفظوا القرآن[(٢)].

وفي بعض الروايات أنها جاءت بغلام حَنَّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماه عبد الله، وهو الذي كان من سلالته الإخوة القراء.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٢٠) أحاديث الأنبياء.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٦٩) الجنائز، ومسلم (١٤/ ١٢٤-١٢٥).

قال الحافظ: وقوله: «هيأت شيئًا» قال الكرماني: أي أعدت طعامًا لأبي طلحة وأصلحته، وقيل: هيأت حالها وتزينت.

قال الحافظ: بل الصواب: أنها هيأت أمر الصبي بأن غسلته وكفنته كما روي في بعض طرقه صريحًا، وقوله: «فلما أصبح اغتسل» كناية على الجماع[1].

فهذا موقف إيماني من أم سليم رضي الله عنها، مع أنَّ النساء أشد هلعًا وجزعًا في مثل هذه المواقف، ولكنه الإيمان الذي يُغير طبائع النفوس ويعلو بهمم العباد، ويرفعهم في الدنيا والآخرة، وعمت بركة هذا الموقف الإيماني ذرية أبي طلحة وأم سليم ببركة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فكان في أولاد أولادهما تسعة كلهم ختم القرآن، فليتأسَّ الشخص، وليتعلم أوصاف السابقين الأولين، وليعلم أن الرجال أَوْلى بهذا الصنيع.

وقال الحافظ: وفي قصة أم سليم هذه من الفوائد أيضًا: جواز الأخذ بالشدة، وترك الرخصة مع القدرة عليها، والتسلية عن المصائب، وتزين المرأة لزوجها، وتعرضها لطلب الجماع منه، واجتهادها في عمل مصالحه، ومشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، وشرط جوازها ألا تبطل حَقًا لمسلم، وكان الحامل لأم سُليم على ذلك المبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر في أول الحال، تنكر عليه وقته، ولم تبلغ الغرض الذي أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلغها مناها، وأصلح لها ذريتها، وفيه إجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وبيان حال أم سليم من التجلد، وجودة الرأي وقوم العزم[2].

٣- المرأة التي كانت تصرع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ١٧٠).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٧١).

فادع الله لي، قال: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ الله أَنْ يُعَافِيكِ**»، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله لي ألا أتكشف، فدعا لها[١].

قال الحافظ: وقد أخرج البزار وابن حبان من حديث أبي هريرة شبيهًا بقصتها ولفظه: «جاءت امرأة بها لمم إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله، فقال: «**إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت صبرت ولا حساب عليك؟**» قالت: بل أصبر ولا حساب علي.

وفي الحديث فضل من يصرع، وأن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة، وفيه دليل على جواز ترك التداوي، وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء، والالتجاء إلى الله أنجح وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية، ولكن إنما ينجح بأمرين: أحدهما من جهة العليل وهو صدق القصد، والآخر من جهة المداوي وهو قوة توجهه، وقوة قلبه بالتقوى والتوكل، والله أعلم[٢].

فهذا موقف إيماني من هذه الصحابية رضي الله عنها، حيث آثرت ثواب الصبر على مرضها على زوال المرض بالكلية، وقد رغبها النبي ﷺ في ثواب الصبر، وهذا الصبر صبرٌ اختياري، وهو أعلى رتبةً من الصبر الاضطراري، وهو شبيه باختيار يوسف عليه السلام للسجن على الحياة في قصر امرأة العزيز، والله الموفق للخيرات والهادي لأعلى الدرجات.

٤- قصة رجل من أفضل أهل زمانه:

قال وهب بن منبه رحمه الله: أُتِيَ برجل من أفضل أهل زمانه يفتن الناس على أكل لحوم الخنازير، فلما أتي به أعظم الناس مكانه، وهالهم أمره، فقال لهم صاحب شرطة الملك: ائتني بجدي تزكيه تذبحه مما يحل لك أكله فأعطينيه، فإن دعا بلحم الخنزير أتيتك

(١) رواه البخاري (١٠/ ١١٩) المرضى، ومسلم (٦/ ١٣١) البر والصلة.
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ١٢٠).

به فكله، فذبح جديًا فأعطاه إياه، فأمره الملك بأكله فأبى، فجعل صاحب الشرطة يغمز له ويأمره أن يأكله، ويريه أن اللحم الذي دفعه إليه، فأبى أن يأكله، فأمر به الملك صاحب الشرطة أن يقتله.

فلما ذهب به قال: ما منعك أن تأكل وهو اللحم الذي دفعت إليَّ، أظننت أني أتيتك بغيره؟ قال: لا، قد علمت أنه هو، ولكني خفت أن يفتتن الناس بي، فإذا أريد أحدهم على أكل لحم الخنزير قال: قد أكله فلان، فيستن بي فأكون فتنة لهم، فقُتلَ رحمة الله عليه[1].

٥- أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وطاعون عَمْوَاس[2]:

أبو عبيدة أحد العشرة المبشرين رضي الله عنهم، شهد بدرًا وقتل يومئذٍ أباه، وأبلى يوم أحدٍ بلاءً حسنًا، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وَجْنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما، حتى قيل: ما رؤي هَتْمٌ قط أحسن من هتم أبي عبيدة.

ورضيه أبو بكر رضي الله عنه خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبا عبيدة.

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ**»[3].

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة شهيرة، مواقفه الإيمانية عالية رفيعةٌ في البذل والتضحية والزهد، وإنما قصدنا موقفه الإيماني عند نزول وباء الطاعون.

عن قيس بن مسلم عن طارق أن عمر كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون: إنه قد عرضت لي حاجة ولا غنى بي عنك فيها فعجِّل إلي، فلما قرأ الكتاب قال: عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقى ما ليس بباقٍ، فكتب: إني قد عرفت حاجتك فحللني

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٥٥).

(٢) قال الذهبي: طاعون عمواس منسوب إلى قرية عمواس بين الرملة وبين بيت المقدس. وقال الأصمعي: هو من قولهم زمن الطاعون: عَمَّ وآسى.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١١٦) المغازي، ومسلم [٢٤١٩] الفضائل.

من عزيمتك، فإني في جندٍ من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسي عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: مات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قَدْ.

قال: فتوفي أبو عبيدة وانكشف الطاعون[١].

وروى ابن المبارك في الزهد عن شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم عن حديث الحارث بن عميرة قال: أخذ بيدي معاذ بن جبل فأرسله إلى أبي عبيدة فسأله كيف هو؟ - وقد طُعِنَّا - فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله ما يحب أن له مكانها حمر النَّعَمْ[٢].

فصبره رضي الله عنه، وعدم استجابته لاستدعاء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ثم رضاه بما أصيب به من الطاعون، وعدم تمنيه زوال البلاء هو عين الرضا، وهو أعلى الدرجات، ومن أولى بذلك من الصحابة الكرام، ثم من أولى من الصحابة رضي الله عنهم بكل فضيلة من العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين[٣].

٦- عروة بن الزبير رحمه الله:

عن هشام بن عروة عن أبيه: وقعت الأكلة في رجله فقيل له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: إن شئتم، فجاء الطبيب فقال: أسقيك شرابًا يزول فيه عقلك، فقال: امضِ لشأنك ما ظننت أن خلقًا يشرب شراباً ويزول فيه عقله حتى لا يعرف ربه، قال: فوضع المنشار على ركبته اليسرى ونحن حوله فما سمعنا له حسًا، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذتَ لقد أبقيت، ولئن ابتليتَ لقد عافيت، وما ترك حِزبه من القراءة تلك الليلة[٤].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٨-١٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم [٣٦٤] والحاكم (٣/ ٢٦) ورجاله ثقات سوى شهر بن حوشب فهو مختلف فيه.

(٣) انظر ترجمته رضي الله عنه في سلسلة «من أعلام السلف» للمصنف.

(٤) «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٢٠-٢١).

وقال عامر بن صالح عن هشام بن عروة: إن أباه خرج إلى الوليد بن عبد الملك حتى إذا كان بوادي القرى وجد في رجله شيئًا فظهرت به قرحة، ثم ترقى به الوجع، فلما قدم على الوليد قال: يا أبا عبد الله! اقطعها، قال: دونك، فدعا له الطبيب وقال له: اشرب المُرَقّدْ فلم يفعل، فقطعها من نصف الساق، فلما زاد على قوله: حَسَّ حَسَّ، فقال الوليد: ما رأيت شيخًا أصبر من هذا.

وأصيب عروة في هذا السفر بابنه محمد، ركضته بغلة في اسطبل فلم نسمع منه كلمة في ذلك، فلما كان بوادي القرى قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت منهم واحدًا وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفًا وأبقيت ثلاثة، فإن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت[1].

فهذا موقف إيماني في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء، فكم من إنسان يَدَّعي الإيمان، فإذا نزل به بلاء أو مصيبة تزلزل إيمانه، وأساء الظن بربه ﷻ، والمواقف الإيمانية كما ذكرنا غير مرة ثمرة من ثمرات الإيمان، فالدافع إليها قوة الإيمان، ومحبة الرحمن، ولا يصبر عبد هذا الصبر الجميل إلا إذا اكتمل إيمانه، وعلا يقينه، والأئمة أئمة في العلم، والعمل، والعبادة، والجهاد، فقد كان عروة يسرد الصيام، ويقوم بربع القرآن كل ليلة، ويحكم ما عند خالته عائشة رضي الله عنها من مرويات قبل وفاتها بثلاث سنوات.

وقد ورد أنه نظر إلى ساقه التي قطعت فقال: الله يعلم أني ما مشيت بها إلى معصية قط، وأنا أعلم.

فرحم الله أئمتنا، وجزاهم الله عنا خير الجزاء، فقد أسندوا لنا الأحاديث النبوية، وضربوا لنا أروع الأمثلة في العبادة، والصبر، والجهاد، ولاشك في أن هذه النماذج، وهذه القمم في العلم والعمل، كلها تدل على بركة رسالة نبينا محمد ﷺ، ويمن سفارته، فلا يمكن أن توجد في أمة من الأمم مثل هذه الثمرات الطيبة، فجزاه الله عنا خير ما جزى به نبيًا عن أمته، ورحم الله علماء المسلمين وأعظم مثوبتهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٢٤٧).

٧- الخنساء رضي الله عنها وأبناؤها الأربعة:

حضرت الخنساء رضي الله عنها حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فوعظتهم وحرضتهم على القتال وعدم الفرار، وقالت: إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنو أب واحد، وأم واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت أخوالكم، فلما أصبحوا باشروا القتال واحدًا بعد واحد حتى قتلوا.

فبلغها الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[١]، قالوا: وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة حتى قبض[٢].

وقد أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، وكانت تقول في أول أمرها البيتين أو الثلاثة حتى قتل أخوها شقيقها معاوية بن عمرو، وقتل أخوها لأبيها صخر، وكان أحبهما إليها لأنه كان حليمًا جوَّادًا محبوبًا في العشيرة، وكان مما قالت فيه:

ألا يَا صَخْر لا أنْسَاكَ حَتّى ... أُفَارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقُّ رَمْسِي

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وأبْكِيْهِ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

ولَوْلا كَثْرةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي[٣]

فانظر - رحمك الله - كيف جزعت قبل إسلامها على أخيها لأبيها صخر وأنشدت ما تتقطع له القلوب، وعندما تشرفت بالإسلام، حَضَّت أبناءها على الجهاد ورغبتهم في الاستشهاد، فلما قتلوا، قالت: الحمد الله الذي شرفني بقتلهم، إنه الإيمان الذي يغير القلوب ويرفع الهمم، وهي المواقف الإيمانية التي يوفق لها سادات المؤمنين، ويرتفعون بها في الدنيا.

---

(١) الأولى أن يقال: «فردوسه الأعلى» فقد قال بعضهم: مستقر الرحمة ذات الله عز وجل، وصرح بعضهم بالجواز، فالله أعلم.

(٢) باختصار من «الإصابة في معرفة الصحابة» (٨/ ٦٦، ٦٧).

(٣) باختصار وتصرف من «الإصابة في معرفة الصحابة» (٨/ ٦٦، ٦٧).

٨- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

لما قدم سعد بن أبي وقاص مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحدٍ يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفني، وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة، قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فردّ عليك بصرك؟! فتبسم وقال: يا بُنَي قضاءُ الله سبحانه عندي أحسن من بصري[1].

فالعبد لا يصل إلى درجة إجابة الدعاء إلا بعد مجاهدة عظيمة، وتَقرُّب، وتحبب إلى الله ﷻ، كما في الحديث القدسي: «**ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الّذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الّتي يَبطُشُ بها، ورِجْلَهُ الّتي يَمشي بِها، ولَئِنْ سألَنِي لأُعطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»[2].

فترتفع رتبة العبد بالطاعات وكثرة النوافل، فيكون في درجة تؤهله إن سأل الله - ﷻ - أعطاه، وإذا استعاذ به أعاذه، والعبد يصل مع ذلك إلى درجات عالية من محبة الله ﷻ، والرضا بقضائه وقدره، والتعظيم لأمره ونهيه كما قال بعضهم: أَحَبُّهُ إِلَيَّ أحبُّهُ إليه.

٩- رجل من الأنصار لم يُذكر اسمه:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فغشينا دارًا من دور المشركين، فأصبنا امرأة رجل منهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا، وجاء صاحبها وكان غائبًا فذكر له مصابها فحلف لا يرجع حتى يهريق في أصحاب رسول الله ﷺ دمًا، فلما كان رسول الله ﷺ في بعض الطريق نزل في شِعبٍ من الشعاب وقال: «**مَنْ رَجُلَانِ يَكْلَآنَنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ مِنْ عَدُوِّنَا؟**»، قال: فقال رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار: نحن نكلؤك يا رسول الله.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٦٨).

(٢) تقدم تخريجه.

قال: فخرجا إلى فَم الشِّعب دون المعسكر، ثم قال الأنصاري للمهاجري: أتكفيني أول الليل وأكفيك آخره، أو تكفيني آخره وأكفيك أوله؟ قال: فقال له المهاجري: بل اكفني أوله وأكفيك آخره.

فنام المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، قال: فافتتح سورة من القرآن فبينا هو فيها يقرؤها جاء زوج المرأة، فلما رأى الرجل قائمًا عرف أنه ربيئة القوم، فينزع له بسهم فَيَضعه وهو قائم يقرأ في السورة التي هو فيها، ولم يتحرك كراهية أن يقطعها، قال: ثم عاد له زوج المرأة بسهم آخر فوضعه فيه، قال: فانتزعه وهو قائم يصلي في السورة التي هو فيها ولم يتحرك كراهية أن يقطعها، ثم عاد له زوج المرأة المرة الثالثة بسهم فوضعه فيه قال: فانتزعه فوضعه ثم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اقعد فقد أتيت، قال: فجلس المهاجري فلما رآهما صاحب المرأة هرب، وعرف أنه قد نُذِرَ به، قال: وإذا الأنصاري يفوح دمًا من رميات صاحب المرأة.

قال: فقال له أخوه المهاجري: يغفر الله لك ألا كنت آذنتني أولَ ما رماكَ، قال: كنت في سورة من القرآن قد افتتحتها أصلي بها فكرهت أن أقطعها.

وايم الله! لولا أني أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها[1].

لله در الأنصار أصحاب المواقف الإيمانية، وهم الذي تبوءوا الدار والإيمان، وأي صبر مثل هذا الصبر الجميل، وأي مواقف تداني تلك المواقف الإيمانية، رضي الله عن أصحابها ورفعهم بها وأعلاهم، وقد فعل، فلله الحمد والمنة.

١٠- عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

عن الربيع بن سبرة قال: لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بن عبد العزيز، ومزاحم في أيام متتابعة دخل الربيع بن سبرة عليه فقال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، فما رأيت أحدًا أصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة، والله ما رأيت مثل

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٧٧٣-٧٧٥).

ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى قط، قال: فطأطأ عمر رأسه فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيجت علي أمير المؤمنين، قال: ثم رفع رأسه فقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدت عليه ما قلت أولًا فقال: والذي قضى عليهم بالموت ما أحب أن شيئًا من ذلك كان لم يكن.

وأعاد الحديث وزاد فيه: ما أحب أن شيئًا من ذلك كان لم يكن؛ لما أرجو من الله تعالى فيهم[1].

فانظر إلى أعلى الدرجات، وأشرف الأحوال، إنه الرضا عن الله ﷻ، ومن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، والرضا أكبر من الجنة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وعمر بن عبد العزيز إمام عادل، وصاحب زهد وورع، وعلم وعبادة، وشرف وسيادة، كل أخباره عجيبة، وقد أشار الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن نشر فضائل عمر بن عبد العزيز ينتظر بعده خير كثير، وقد وفقنا الله - ﷻ - لجمع ترجمة له رضي الله عنه، وكانت من أكثر التراجم المجموعة انتشارًا وقبولًا ببركة صاحبها، والله يجمعنا مع هؤلاء الأعلام بحبنا لهم، ونشرنا لأخبارهم، ولله الحمد والمنة على كل نعمة.

١١- صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، ومقتل أخيها أسد الله حمزة رضي الله عنه:

لما انهزم المسلمون بعد أن خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ بالثبات سواء كان النصر أم كانت الأخرى، وانفض أكثر الناس عن رسول الله ﷺ ولم يبق حوله سوى القلائل من أصحابه قامت صفية رضي الله عنها وبيدها رمح تضرب به في وجوه الناس الفارين المنهزمين، والأعداء المشركين، وتقول لهم: «انهزمتم عن رسول الله!» فلما رآها رسول الله ﷺ أشفق عليها فقال لابنها الزبير بن العوام: القها فأرجعها، لا ترى ما بشقيقها - أي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه -.

فلقيها الزبير فقال: «يا أُمة، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي...».

---

(١) «مناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي [٣٠٤].

فقالت صفية: وَلِمَ؟ فقد بلغني أنه مُثل بأخي، وذلك في الله - ﷻ - قليلٌ، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله تعالى.

وعاد الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال ﷺ: «**خَلِّ سَبِيلَهَا**»، فأتت صفية حمزة فنظرت إليه، وصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت ثم أمر رسول الله ﷺ به فدفن(١).

فهذا موقف إيماني من عَمَّةِ النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها وقد رأت أخاها وقد مثل به المشركون، ومع ذلك صبرت واحتسبت فلله درُّها وعلى الله تعالى أجرها، والمواقف العظيمة يوفق لها العظماء، وقريش، هي قريش والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وصفية هي أم الأسد المغوار حواري رسول الله ﷺ وفارس الإسلام الزبير بن العوام رضي الله عنه، وسوف يأتي موقف آخر لأسماء زوجة الزبير شبيه بهذا الموقف فلله هذه القمم الشامخة.

١٢- أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ومقتل ولدها عبد الله بن الزبير:

دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها فقال: يا أُمَّه! خذلني الناس، حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلا اليسير، ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

فقالت: الله الله يا بني! إن كنت تعلم أنك على حَق تدعو إليه فامض عليه، ولا تمكن من رقبتك غِلمان بني أمية فيلعبوا بك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت: إني كنت على حَق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأحرار، ولا من فيه خيْرٌ، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير، والله لضربة بالسيف في عِزٍّ أحب إليّ من ضربة بالسوط في ذلٍ، فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني، قالت: يا بني! إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح فامض على بصيرتك واستعن بالله.

---

(١) نقلًا عن «عودة الحجاب» (٢/ ٥٥٠) للشيخ محمد بن إسماعيل، ط. دار الصفوة.

فقبل رأسها وقال لها: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيًا إلى الله، والله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تنتهك محارمه، ولكني أحببت أن أطّلع على رأيك فيزيدني قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي، والله ما تعمدت إتيان منكر، ولا عملًا بفاحشة، ولم أَجُرْ في حكم، ولم أغدر في أمان ولم يبلغني عن عمالي حَيفٌ فرضيت به، بل أنكرت ذلك، ولم يكن عندي شيءٌ آثر من رضاء ربي، اللهم إني لا أقول ذلك تزكية لنفسي، ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عَني.

فقالت: والله إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلًا، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك.

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبره بأمه، اللهم إن قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين.

قال: يا أمي! لا تَدَعي الدعاء لي قبل قتلي ولا بعده.

فقالت: لن أدعه، فمن قتل على باطلٍ فقد قتلت على حق، فتناول يدها ليقبلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال لها: جئت مودعًا لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا.

قالت: امض على بصيرتك، وادن مِنّي حتى أودعك، فدنا منها فعانقته وقبلته فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، فقال: ما لبستها إلا لأشد متنك.

قالت: إنها لا تشد متني، فنزعها ثم درج لمته وشد قميصه وجبته وخرج وهو يقول:

أبي لابن سَلْمَى أَنْ يُعَيِّر خَالِدًا ... مُلاقي المَنَايَا أيَّ صَرْفٍ تيمّما

فلستُ بمبتاع الحَيَاةِ بُسبَّةٍ ... وَلاَ مُرتَقٍ من خَشْيَةِ الموتِ سُلّمَا

وقال لأصحابه: احملوا على بركة الله، وليشغل كل منكم رجلًا، ولا يلهينكم السؤال عني، فإني على الرعيل الأول، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، وهناك رماه

رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه، فأخذته منه رعدة، فدخل شِعْبًا من شِعاب مكة يستدمي، فبصرت به مولاة له، فقالت: وا أمير المؤمنينا! فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه، وصلبه الحجاج، فأقام جثمانه على الجذع حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه، وذهب البلى بأوصاله، ثم كفنته وصلت عليه ودفنته[١].

وعن يعلي التيمي قال: دخلت مكة بعد قتل ابن الزبير بثلاث وهو مصلوب فجاءت أُمُّهُ عجوز طويلة عمياء، فقالت للحجاج: أما آن للراكب أن ينزل؟ فقال: المنافق؟ قالت: والله ما كان منافقًا، كان صوَّامًا قوَّامًا بَرًا، قال: انصرفي يا عجوز فقد خَرَّفتِ، قالت: والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**في ثقيف كذابٌ ومُبِيرٌ**»[٢] الحديث.

فهذا موقف إيماني في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء، من ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر، وما أكثر مواقفها الإيمانية، عن أسماء قالت: صنعت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي حين أراد أن يهاجر، لم أجد لسفرته ولا لسقائه ما أربطها، فقلت لأبي: ما أجد إلا نطاقي، قال: شقيه باثنين فاربطي بهما، قال: فلذلك سميت: ذات النطاقين[٣].

وقد طال عمرها رضي الله عنها فهي أكبر من عائشة الصديقة ببضع عشرة سنة، وهي آخر المهاجرات وفاة.

قال ابن سعد: ماتت بعد ابنها بليالٍ، وكان قتله لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين[٤].

وعن ابن أبي مليكة قال: دخلت على أسماء بعدما أصيب ابن الزبير فقالت: بلغني أن هذا صلب عبد الله، اللهم لا تمتني حتى أوتى به فأحنطه وأكفنه.

(١) نقلًا عن «عودة الحجاب» (٢/ ١٩٣-١٩٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٩٤) والحديث رواه مسلم [٢٥٤٥] فضائل الصحابة مطولًا.
(٣) «رواه البخاري» (٧/ ١٩٣-١٩٤) المناقب، وأحمد (٦/ ٣٤٦).
(٤) «طبقات ابن سعد» (٨/ ٢٥٢).

فأتيت به بعد، فجعلت تحنطه بيدها وتكفنه بعدما ذهب بصرها.

ومن وجه آخر عن ابن أبي مليكة: وصلت عليه وما أتت عليها جمعة إلا ماتت[١].

١٣- معاذة العدوية رحمها الله زوجة صلة بن أشيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

روى ابن أبي شيبة بإسناده عن ثابت البناني أن صلة بن أَشْيم كان في غزاة له ومعه ابن له: فقال له: أي بُني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم أبوه فقتل فاجتمعت النساء، فقامت امرأته مُعَاذةُ العدوية فقالت للنساء: مرحبًا إن كنتن جئتن لتهنئتي مرحبًا بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن[٢].

ومعاذة العدوية عابدة من العابدات الشهيرات، وإنما تليق المواقف الإيمانية بأرباب العبادة والعلم؛ لأن الموقف الإيماني ثمرة الإيمان، فهم أحقُّ بها وأهلها.

وهذا الموقف الإيماني يشتمل على مواقف:

الموقف الأول: موقف صلة بن أشيم وهو يدفع ابنه للجهاد ويرغبه في الاستشهاد، فهو موقف في البذل والتضحية، وكيف أن الواجب على المسلم أن يكون حُبُّهُ لله - وَجَلَّ - ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللجهاد في سبيل الله أكثر من حبه لأولاده.

وفي هذا واعظ لكثير من الآباء الذين يمنعون أولادهم من الالتزام بالشرع المتين وصحبة الدعاة المخلصين خوفًا عليهم من السجون والمعتقلات، مع أن ما قدره الله - وَجَلَّ - للعبد لابد له منه، وانظر إلى خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كم قاتل وكافح وجاهد، وما في جسده موقع إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ومع ذلك مات على فراشه، فلا نامت أعين الجبناء.

وفيه موقف الولد وطاعته لأبيه، وتقدمه للقتال قبل أبيه حتى قتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٩٥).

(٢) «تسلية أهل المصائب» [٣٥].

وموقف معاذة رحمها الله في الصبر على البلاء، فرحم الله سلف الأمة، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

١٤- أعرابية ذهب البَرَدُ بزرعها فصبرت واحتسبت فعوضت خيرًا:

قال التنوخي: أخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصُّولي بالبصرة سنة خمسٍ وثلاثين وثلثمائة قراءة عليه وأنا أسمع عن البرقي قال:

رأيت امرأة بالبادية، وقد جاء البرد فذهب بزرع كان لها، فجاء الناس يعزونها فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف، وبيدك التعويض عما تلف، فافعل بنا ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك، وآمالنا مصروفة إليك.

قال: فلم أبرح حتى جاء رجل من الأجِلاَّء فحُدث بما كان فوهب لها خمسمائة دينار[1].

ثواب الصبر والرضا كامل في الآخرة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ومع ذلك فإن الله - ﷻ - يعوض المؤمن في الدنيا ولا يخيبه، فهذه من البركات المعجلة للمؤمنين، وتوفية حسابهم يوم القيامة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن لِلْحَسَنَةِ لنورًا في الوجه، وضياءً في القلب، وسعةً في الرزق، ومودة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلامًا في الوجه، وسوادًا في القلب، وضيقًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.

١٥- إبراهيم الحربي ورضاه بوفاة ولده:

عن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن، ولقَّنه من الفقه جانبًا كبيرًا، قال: فمات، فجئت أُعَزّيه، فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا.

قال: فقلت له: يا أبا إسحاق! أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه؟!

---

(١) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ١٨١) دار صادر.

قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قِلال فيها ماء، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًا شديدًا حره، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إليَّ وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأي شيءٍ أنتم؟ فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا، وخَلَّفْنَا آباءنا؛ فنستقبلهم نسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته[1].

فهذا موقف إيماني من إبراهيم الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرضا بقضاء الله ﷻ، وفيه تسلية لمن مات له ولد، وقد وردت الأخبار الصحيحة الصريحة بكثير من المبشرات لمن مات له ولد فصبر واحتسب، وما ذاك إلا لصعوبة الصبر والرضا في هذا المقام، ولأن الأولاد فلذات الأكباد، والعبد لا يحب لأحدٍ من الخير مثل ما يحب لابنه، ويؤثره على نفسه في كل شيءٍ، ويفديه بنفسه، ولذلك كان ابتلاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أشد البلاء، فالعبد يسهل عليه أن تهون نفسه وأن يضحي بنفسه، أما أن يضحي بولده وأن يتولى هو ذبح الولد بنفسه فلله هذه النفوس التي تبتلى بمثل هذا البلاء.

١٦- أم عقيل -رحمها الله-:

قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي البادية، فضللنا الطريق فإذا نحن بخيمةٍ عن يمين الطريق، فقصدناها، فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: ما أنتم؟ قلنا: قوم ضلوا عن الطريق أتيناكم فأَنِسْنَا بكم.

فقالت: يا هؤلاء، ولُّوا وجوهكم عنّي حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل ففعلنا، فألقت لنا مِسحًا فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني.

ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها، إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها فقال: يا أم عقيل! أعظم الله أجرك في عقيل.

قالت: ويحك! مَات ابني؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه

---

(١) «تسلية أهل المصائب» [٣٣].

الإبل فرمت به في البئر.

فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشًا فذبحه وأصلحه، وقَرَّب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت، فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم من يُحسِن من كتاب الله شيئًا؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ عَلَيَّ من كتاب الله آيات أتعزى بها.

قلت: يقول الله - ﷻ - في كتابه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قالت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صَفَّتْ قدميها وصَلَّت ركعات، ثم قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عقيلًا - تقول ذلك ثلاثًا - اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني به[1].

وهذا الموقف تعجز عنه الكلمات في كرم الضيافة، والصبر، والرضا، والاحتساب وبعض هذه الصفات كانت متوفرة عند العرب في جاهليتهم فلما تشرفوا بالإسلام ازدادت رسوخًا بالإسلام وتهذبت بآدابه وأخلاقه، وقد عَزَّت هذه الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة في المتأخرين، والله ولي الصابرين.

---

(١) «المنحة المحمدية» للشيخ/ محمد عبد السلام الشقيري رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٠٨-٢٠٩) نقلًا عن «عودة الحجاب» (٢/ ٥٤٨-٥٤٩) والمسح: الفراش، والذمام: الحرمة، وإنما تقصد حق ضيافة القوم.